مجلة أبحاث في العلوم التربوية والإنسانية والآداب واللغات، المجلد 02 العدد 01 بتاريخ 2021/03/15م

ISSN: 2708-4663 DNNLD :2020-3/1128

العمل التطوعي: أصوله القرآنية، وامتداداته الاجتماعية

د. مصطفى بن أحمد الحكيم

أستاذ في الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين بفاس-مكناس-المغرب

رئيس مؤسسة منارات الفكر الدولية

رئيس مجلس إدراة المركز الدولي للإستراتيجيات التربوية والأسرية

d.lahkimmostafa@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2021/02/14 م تاريخ التحكيم: 2021/02/21م تاريخ النشر: 2021/03/15م

الملخص:

يروم هذا البحث استنباط أصول العمل التطوعي والتكافل الاجتماعي في القرآن، وبيان أثر هذه الأصول والقيم التطوعية القرآنية في الخدمة الاجتماعية، وتأثيراتها الإيجابية في علاج المشكلات، وتجاوز الأزمات.

إن من شأن هذه الأصول القرآنية التي شادت صرحا متينا، وبنيانا راسخا لقيم التطوع أن تسهم في علاج مشكلاتنا الاجتماعية، ومداواة أمراض الأنانية والأثرة والفردانية التي أمست من لوازم الحياة المعاصرة، مما يستوجب الرجوع إلى معين القرآن الصافي، والاقتباس من أنواره، والبحث في أسراره، واستبصار فوائده ومقاصده. وقد حاولت هذه الورقة البحثية مقاربة مصطلح التطوع مقاربة قرآنية، استصحبت أدوات النظر اللغوي، والجهد التفسيري مما مكن من استنباط أصول الخدمة الاجتماعية والأعمال التطوعية.

وقد انتظم هذا البحث -بعد مقدمة- في مبحثين: اعتنيت في المبحث الأول بمصطلح التطوع، ومادته اللغوية، والمعاني المتولدة منها بما يُمَكِّن من فهم أبعاد المصطلح ومقاصده، ثم عرضت في المبحث الثاني لأصول التطوع القرآنية، وأسسه الربانية التي تشكل حاضنا قيميا، وإطارا تشريعيا للخدمة الاجتماعية والأعمال التطوعية.

الكلمات المفتاحية: العمل، التطوعي، الأصول، الامتدادات

Dr.Mostafa lahkim
Professor at the Regional Academy of Education and Training in Fez-Meknes-Morocco
d.lahkimmostafa@gmail.com

Abstract :

This research purports to devise assets volunteer work and social solidarity in the Koran, and the statement of assets and the impact of these values Quranic volunteer in social service, and the positive effects in the treatment of problems, and overcome the crisis.

ISSN: 2708-4663 DNNLD :2020-3/1128

This Koranic assets constructed edifice solid foundation and build a firm for the values of volunteering to contribute to the treatment of our social problems, and heal the selfishness and diseases of our individuality, which eventually become the supplies of modern life, which requires the return to prevent the Qur'ran , and quotation of its lights, and search the secrets, clairvoyance benefits and purposes.

This research has enrolled -After Introduction- in two sections: the first section about the term "volunteering",in its language substance, and its generated meanings, so as to understand the dimensions of the term and purposes, and then, i presented in the second topic, the assets of volunteering Qur'an, and its divine foundation that constitute embracing values incubator , and a legislative framework for social and voluntary services.

Keywords: Work, volunteering, assets, extensions

مقدمة:

إن البحث في مصدر الهداية الإنسانية، ومجلى المقاصد الربانية، ومفتاح باب السعادة، وقادح زند الإرادة لحقيق أن ينهض بحمل أعبائه أولو البصر في الدين، الراسخون في الفهم، المتحلون بزينة العلم؛ الذين تشربت قلوبهم معاني القرآن، وأخلاق الإيمان؛ ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين.

وقد نهض بهذه المهمة، وأنار الدروب المدلهمة رجال وردوا حياض القرآن، وقبسوا من مشكاة النبوة من سلفنا الصالح، معتمدين على منهج قويم يجمع بين فهم الشرع، ونظر العقل، ونور القلب، وروح العصر. فأسسوا بذلك منهجا راسخا صار لمن بعدهم موئلا، ولفهمهم رافدا، ولعلمهم مرجعا، من خلال الدراسات المتصلة بالقرآن، المعتنية بعلومه، المرتبطة بمقاصده وقضاياه والتي أثلها علماؤنا الأفذاذ.

ولا شك أن بين تطور الأمة الحضاري والدراسات القرآنية وثيق الارتباط، وعظيم الاتصال، وهذا ما سعى مؤتمركم الكريم، ومحفلكم المبارك إليه حين أحلَّ القرآن الكريم مكانه الأثير، ومنزلته الكريمة ككتاب هداية وإرشاد، وبيان نذارة وبشارة، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (الإسراء:9).

فلا تقدم يُرجى، ولا عزة تُأمل، ولا قوة تُنال إلا إذا جعلنا كتاب الله هادينا إلى الرشد، وعاصمنا من الزيغ، ودليلنا إلى الخير، ورفعة الشأن، وعلو المنزلة في الدنيا والآخرة، يقول الإمام الشاطبي (ت

ISSN: 2708-4663 DNNLD :2020-3/1128

790هـ) مبرزا أهمية الرجوع إلى القرآن: «أنه كلية الشريعة وعمدة الملة، وينبوع الحكمة، وآية الرسالة، ونور الأبصار والبصائر، وأنه لا طريق إلى الله سواه، ولا نجاة بغيره، ولا تمسك بشيء يخالفه... وإذا كان كذلك لزم ضرورة لمن رام الاطلاع على كليات الشريعة، وطمع في إدراك مقاصدها، واللحاق بأهلها أن يتخذه سميره وأنيسه، وأن يجعله جليسه على مر الأيام والليالي نظرا وعملا»[1].

إن الناظر في آيات القرآن، المستقرأ لها ليخرج بفكرة مؤداها أهمية المسألة الاجتماعية وشرفها وفضلها؛ حيث أحلها القرآن المكي والمدني مقاما أثيرا، ومنزلا رفيعا. وقد اعتنى الإسلام بقيم العمل التطوعي والخدمة الاجتماعية، ودعا إلى تمثل هذه القيم في حياة المسلمين بما يسهم في القضاء على الفوارق الطبقية، وعلاج المشاكل الاجتماعية، ومساعدة المحتاجين، ودعم الفئات في وضعية صعبة.

يروم هذا البحث استنباط أصول العمل التطوعي والتكافل الاجتماعي في القرآن، وبيان أثر هذه الأصول والقيم التطوعية القرآنية في الخدمة الاجتماعية، وتأثيراتها الإيجابية في علاج المشكلات، وتجاوز الأزمات.

ولما كان مفتاح كل فهم سديد، ونظر مديد، وسبيل كل سفر قاصد، وخطو راشد منوطا بوجود منهج معلوم، وخط مرسوم ينتظم به المقال، وتقْرب به الشُّقة، وتستبين به الرؤية؛ كان لزاما الإلماع لعناصر هذا المنهج، ومقدماته، ومحدداته. لذا سنعتمد في هذا البحث -ابتداءً- على المنهج الاستقرائي؛ بما يُمَكِّن من التصنيف الموضوعي للأحكام والنصوص المتعلقة بالموضوع المطروق؛ جمعا لمادته، وتحديدا لمجالاته وتقاطعاته توثيقا واستقصاءً، ثم سنعمد إلى إعمال آليات الاستنباط وأدواته وأصول التفسير، والمدونات التفسيرية وعلوم القرآن في بناء هذه الأصول، وبيان تأثيرها في علاج المشكلات الاجتماعية المعاصرة.

وقد انتظم هذا البحث -بعد مقدمة- في مبحثين: اعتنيت في المبحث الأول بمصطلح التطوع، ومادته اللغوية، والمعاني المتولدة منها بما يُمَكِّن من فهم أبعاد المصطلح ومقاصده، ثم عرضت في المبحث الثاني لأصول التطوع القرآنية، وأسسه الربانية التي تشكل حاضنا قيميا، وإطارا تشريعيا للخدمة الاجتماعية والأعمال التطوعية.

ISSN: 2708-4663 DNNLD :2020-3/1128

المبحث الأول: العمل التطوعي: مقاربة مصطلحية

تنتصب المصطلحات في بنية المشاريع الفكرية والنظريات العلمية أعمدة مؤَسِّسَة، ومفاتيح موصلة، ومفاصل رابطة تُساهم في حركة الفكرة، وتساعد على تشكل المعنى في قوالب مصطلحية تنقله من دائرة الإضمار إلى فضاء الإظهار، حيث تؤدي اللغة الحاملة بذلك وظيفتها التواصلية، وغاياتها التعبيرية؛ لذلك كان لزاما على كل من يروم الكشف عن المعاني القرآنية، واستكناه جواهرها المعرفية، وتمثل مراد الله في كتابه العزيز أن يكون له حظ وافر من علم اللغة، وتمكن من آليات الدراسات المصطلحية والمقاربات المفاهيمية. لذلك اشترط علماء السلف في من يتصدى للنظر في القرآن كشفا وتدبرا وتفسيرا أن يكون له ذوق في اللغة، وفهم لمستوياتها الدلالية، واستعمالاتها اللسانية، يقول الإمام ابن تيمية (ت 728هـ) في هذا الشأن: «**إن الله لما أنزل كتابه باللسان العربي، وجعل رسوله مبلغا عنه الكتاب والحكمة بلسانه العربي وجعل السابقين إلى هذا الدين متكلمين به، لم يكن سبيل إلى ضبط الدين ومعرفته إلا بضبط اللسان، وصارت معرفته من الدين..**»[2].

لذا سنعمد في هذا المبحث إلى حصر الدلالات اللفظية والاستعمالات اللغوية لمصطلح التطوع في اللغة العربية إفرادا وتركيبا، واشتقاقا ونحتا؛ من خلال استحضار مواطن وروده في القرآن الكريم، وبيان معانيه واستعمالاته كمّاً وكيفا.

يرجع مصطلح التطوع في مأخذه اللغوي وجذره الأصلي إلى مادة "طوع"، وقد وردت باشتقاقات مختلفة، وصيغ متعددة (المُطَاوَعة، التطوع، الطاعة، الاستطاعة، الطَّوْع، المطَّوِّع...)، وقد وجدنا هذه المادة اللغوية –بعد الإحصاء والاستقراء– تدور على المعاني التالية سنعمد إلى عرضها في هذا المحل تاركين عمليات التحليل والربط، وبيان وجوه التناسب والتناسق والانسجام بينها وبين مصطلح التطوع إلى حين نظرنا في أصول العمل التطوعي في القرآن الكريم:

– الانقياد والإذعان والاتباع: قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (فصلت:11). يقول ابن فارس (ت 395هـ): «الطاء والواو والعين أصلٌ صحيح واحد يدلُّ على الإصحاب والانقياد. يقال: طاعَه يَطُوعه، إذا انقاد معه ومضى لأمره، وأطاعه بمعنى طاعَ له، ويقال لمن وافَقَ غيرَه: قد طاوعه»[3]. وأشار الراغب (ت502هـ) إلى تقارب لفظتي:

ISSN: 2708-4663 DNNLD :2020-3/1128

الطوع والطاعة فقال: «الطوع: الانقياد ويضاده الكره، قال: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ والطاعة مثله لكن أكثر ما تقال في الائتمار لما أُمر، والارتسام فيما رُسم»[4]. لذلك جَمعت لفظتا الطاعة والطوع من معاني لين الجانب، والسلالة في الاتباع، والموافقة في الأمر حظا وافرا، يقول العسكري (كان حيا سنة 395هـ) في فروقه: «الطاعة في مجاز اللغة تكون اتباع المدعو الداعي إلى ما دعاه إليه»[5]، وعند الجوهري (ت 393هـ): «فلان طوع يديك أي منقاد لك، وفرس طوع العنان إذا كان سلسا»[6].

– بذل النفس والمال في سبيل الله، واسترخاص المهج طلبا لمرضاته وإعلاء لكلمته ونصرة لدينه وشريعته: منه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (التوبة: 79) قال ابن فارس: «يقال للمجاهِدَةِ الذين يتطوَّعون بالجِهاد: المطَّوّعة، بتشديد الطاء والواو، وأصله المتطوّعة ثم أدغمت التاء في الطاء، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ المطَّوّعِينَ من المؤمِنِينَ﴾ أراد –والله أعلم– المتطوّعين»[7].

–القدرة على الوفاء بمقتضيات الأعمال: يقول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران:97) وقد وردت بهذا المعنى في القرآن الكريم بصيغ فعلية مختلفة: يستطيعون، يستطيع، استطاعوا، تستطيعوا، تستطيع، تستطيعون، اسطاعوا، استطعنا، يستطعْ... عرف الراغب الاستطاعة بقوله: «استفالة من الطوع، وذلك وجود ما يصير به الفعل متأتيا، وهي عند المحققين اسم للمعاني التي بها يتمكن الإنسان مما يريده من إحداث الفعل»[8]، وعند الجوهري الاستطاعة: الإطاقة[9]، قال ابن منظور (ت711هـ): «الاستطاعة القدرة على الشيء، وقيل هي استفعال من الطاعة»[10].

– تحبيبٌ في الفعل، وتحسين له، وتشجيع عليه على سبيلي التسهيل والإعانة: يقول الله تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (المائدة: 30)، يقول ابن منظور: «وطوعت له نفسه قتل أخيه قال الأخفش مثل: طوقت له، ومعناه: رخصت وسهلت، حكى الأزهري عن الفراء معناه: فتابعت نفسه، وقال المبرد: فطوعت له نفسه: فعلت من الطوع، وروي عن مجاهد أنها فطوعت له نفسه: شجعته، قال أبو عبيد عن مجاهد أنها أعانته على ذلك، وأجابته إليه»[11]. وإلى هذا المعنى أشار

ISSN: 2708-4663 DNNLD :2020-3/1128

الفيروزآبادي (ت 817هـ) فقال: «تابَعَتْه وطاوَعَتْه، أو شَجَّعَتْه وأعانَتْه وأجابَته إليه»[12]. ورجح الأزهري (ت 370هـ) هذا المعنى فقال: «والأشبه عندي أن يكون معنى (طوّعت) سمَّحت وسهَّلت له نفسهُ قتلَ أخيه، أي جعلت نفسه بهواها المردي قتلَ أخيه سهلاً وهوَّنته»[13].

- **الاتساع والبركة في الانتفاع:** قال الأزهري: «قد أطاع له المَرْتَع: أي اتسع له، وأمكنه من الرعي»[14]، وفي هذا المعنى يقول الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 170هـ): «يُقالُ للإبل وغيرها: أطاعَ لها الكلأُ إذا أصابتْ فأكلَتْ منه ما شاءت، قال الطرمّاح: فما سرحُ أبكارٍ أطاعَ لِسَرْحِهِ»[15].

– دلالة النضج والاكتمال: يقول ابن منظور: «أطاع التمر: حان صرامه، وأدرك ثمره، وأمكن أن يجتنى، وأطاع النخل والشجر إذا أدرك»[16]، ونقل الفيروزآبادي: «أطاعَ الشجرُ: أدْرَكَ ثَمَرُهُ، وأمْكَنَ أن يُجْتَنَى»[17].

– المبادرة إلى الإتيان بالأفعال غير المفروضة محبة وسخاء وعطاء[18]: يقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: 158)، ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾ (البقرة: 184)، قال ابن منظور: «التطوع: ما تبرع به من ذات نفسه مما لا يلزمه فرضه... قال ابن الأثير أصل المطوع المتطوع فأدغمت التاء في الطاء، وهو الذي يفعل الشيء تبرعا من نفسه»[19]. حيث يكون الباعث على الفعل محبة الخير، وطلب المنزلة عند الله، وابتغاء الزلفى لديه؛ فيبادر إلى التبرع بطيبة نفس، وسخاء يد، يقول ابن فارس: «أمّا قولهم في التبرُّع بالشيء: قد تطوَّعَ به، فهو من الباب، لأنّه لم يلزمه، لكنّه انقاد مع خيرٍ أحبَّ أن يفعله، ولا يقال هذا إلاّ في باب الخير والبِرّ»[20].

المبحث الثاني: أصول العمل التطوعي في القرآن الكريم

شكلت الدراسة المصطلحية لمادة "طوع" محطة مهمة للوقوف على معانيها، واستجلاء مقاصدها ومراميها، وتبين أوجه دلالاتها واستعمالاتها، وسنعمد في هذا المبحث إلى استنباط الأصول القرآنية للأعمال التطوعية وفق منهج يقوم على أساسين:

- استثمار نتائج الدراسة المصطلحية، وتوظيف المعاني الناتجة عنها باستخدام آليات الربط، واستحضار أوجه التناسب والتلاقي بين المفهوم العام للتطوع وبين معانيه الجزئية، وسياقاته التأسيسية.

- استحضار الضمائم والمصطلحات الرديفة لمصطلح التطوع كالبِّر، والصدقة، والإحسان، والبذل... واكتشاف الروابط والعلائق بينه وبين منظومة القيم القرآنية التي تمثل وحدة منسجمة، ولحمة واحدة،

ISSN: 2708-4663 DNNLD :2020-3/1128

وبدونها لا يصفو لنا نظر في القرآن، أو فهم له، أو اهتداء به الذي هو مقصد التنزيل: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء: 9) ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: 2).

الأصل الأول: الولاية الإيمانية الجامعة والرابطة الأخوية الواصلة

هيأ الإسلام لفقه التطوع إطارا تشريعيا، ومحضنا قيميا يحفظ بقاءه واستمراره، ويقوي فعاليته وحضوره حين جعل للأخوة بين المؤمنين حقوقا واجبة، والتزامات متبادلة لا يكتمل إيمان المرء إلا بالوفاء بها، وتقديمها على غيرها، يقول الله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: 71)، والولاية هي النصرة والتأييد والإعانة، وهي بهذا الاعتبار تعد أصلا مهما من أصول التطوع تخلق في كيان المجتمع الإسلامي الدوافع الذاتية، والحوافز التشجيعية لنشر الخير، وبذل المعروف، وإسعاف المحتاج. والمتأمل في هذا النص القرآني نجد أن الله تعالى رتب على هذه الولاية الإيمانية التزامات ومقتضيات من أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، وإقامة للصلاة، وإيتاء للزكاة، وطاعة لله ورسوله، وبعضٌ مما ذكر منها له صلة قوية بروافد التطوع (المعروف، الزكاة، الطاعة).

وقد أكد الله تعالى في كثير من آيات الكتاب المبين على هذه الرابطة الإيمانية، ودعا إلى تعظيمها، ونفي ما يكدر صفاءها، وينقض أصولها، فقال في سياق آخر: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الحجرات: 10)؛ وهو سياق محكوم بالتنازع والتخاصم، جالب للكراهية والبغضاء لكن على الرغم من ذلك أمر الله باستحضار هذه الأخوة الدينية حتى تكون أنفع في التصالح والتوافق، وتجنب القتال أو إنهائه. يقول صاحب التحرير والتنوير: «هذه الآية فيها دلالة قوية على تقرر وجوب الأخوة بين المسلمين لأن شأن (إنما) أن تجيء لخبر لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحته أو لما ينزل منزلة ذلك... فلذلك كان قوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ مفيد أن معنى الأخوة بينهم معلوم مقرر . وقد تقرر ذلك في تضاعيف كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم، من ذلك قوله تعالى: ﴿يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان﴾ في سورة الحشر... فأشارت جملة ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ إلى وجه وجوب الإصلاح بين الطائفتين المتباغيتين منهم ببيان أن الإيمان قد عقد بين أهله من النسب الموحَى ما لا يَنقص عن نسب الأخوة الجسدية... ولما كان المتعارف بين الناس أنه إذا نشبت مشاقة بين الأخوين لزم بقية الإخوة أن يتناهضوا في إزاحتها مشيا بالصلح بينهما؛ فكذلك شأن

ISSN: 2708-4663 DNNLD :2020-3/1128

المسلمين إذا حدث شقاق بين طائفتين منهم أن ينهض سائرهم بالسعي بالصلح بينهما وبث السفراء إلى أن يرقعوا ما وَهَى ، ويرفعوا ما أصاب ودهى»[21].

وقد عقد الإمام الغزالي (ت 505هـ) بابا في إحيائه عنونه بـ "حقوق الأخوة والصحبة"، صدَّره بقوله: «اعلم أن عقد الأخوة رابطة بين الشخصين كعقد النكاح بين الزوجين، وكما يقتضي النكاح حقوقا يجب الوفاء بها قياما بحق النكاح... فكذا عقد الأخوة، لأخيك عليك حق في المال والنفس وفي اللسان والقلب»[22]. وحصر الحقوق الواجبة في ثمانية حقوق: -حق المال -الحق في الإعانة بالنفس في قضاء الحاجات والقيام بها قبل السؤال وتقديمها على الحاجات الخاصة -الحق في اللسان بالسكوت مرة وبالنطق مرة أخرى -على اللسان بالنطق -العفو عن الزلات والهفوات -الدعاء في حياته وبعد مماته - الوفاء والإخلاص -التخفيف وترك التكلف والتكليف.

ونكاد نجزم أن هذا الأصل القرآني هو العمدة في أصول العمل التطوعي بما يُرفد مجالاته، ويغدي قيمه، ويقوي فعاليته، ويديم أثره ومنفعته؛ حيث يبذل المسلم لأخيه المسلم من ماله ووقته وجهده طيبة نفسه، مرتاح باله، يُؤَمِّل بذلك الأجر العظيم، والخير العميم، والرضى من رب كريم.

الأصل الثاني: مقصد التعاون والتكافل والتضامن

ما دام أن الإنسان محتاج بفطرته إلى الاجتماع البشري, مفتقر في ذاته إلى من يعضده ويكمله ويعينه على أداء الأمانة المنوطة به -والتي لا يمكنه القيام بها وحده البتة- ويساعده في مسيرة سعيه في الأرض لتحصيل ما يقيم به أوده, ويضمن به بقاءه واستمراره على مسرح الحياة؛ فإن التعاون والتكافل والتعاضد يُمْسِي ضرورة من ضرورات الفعل الإنساني، ولازمة من لوازم الحياة المجتمعية. يقول أبو نصر الفارابي (ت 339هـ) مؤكدا هذه الحقيقة: «كل واحد من الناس مفطور على أنه محتاج في قوامه، وفي أن يبلغ أفضل كمالاته إلى أشياء كثيرة لا يمكنه أن يقوم بها كلها هو وحده, بل يحتاج إلى قوم يقوم له كل واحد منهم بشيء مما يحتاج إليه, وكل واحد من كل واحد بهذه الحال. فلذلك لا يمكن أي ينال الإنسان الكمال، الذي لأجله جعلت الفطرة الطبيعية، إلا باجتماعات جماعة كثيرة متعاونين»[23].

لذلك كان مقصد التعاون والتضامن والتكافل من أبرز الأسس التي يتأسس عليها فقه التطوع في الإسلام، باعتبار ما يتصل بهذا المقصد، وما يَنتج عنه. وما دامت مصالح الإنسان متشابكة، وحاجاته

ISSN: 2708-4663 DNNLD :2020-3/1128

متداخلة، ومعايشه متوقفة على تكامل شعوبه، وتعاونهم، وتبادلهم، ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ (الزخرف:32) على مدارج التسخير والتعمير، بما يحقق السلام والأمن والاستقرار، ويحفظ الوجود الإنساني من نوازع الإفساد وإهلاك الأرض والنسل والحياة. يقول الإمام محمد عبده (ت 1323هـ) بعد عرضه للآراء المختلفة في تفسير قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ (البقرة: 213): «خلق الله الإنسان أمة واحدة; أي: مرتبطا بعضه ببعض في المعاش لا يسهل على أفراده أن يعيشوا في هذه الحياة الدنيا إلى الأجل الذي قدره الله لهم إلا مجتمعين يعاون بعضهم بعضا، ولا يمكن أن يستغني بعضهم عن بعض، فكل واحد منهم يعيش ويحيا بشيء من عمله، لكن قواه النفسية والبدنية قاصرة عن توفيته جميع ما يحتاج إليه، فلا بد من انضمام قوى الآخرين إلى قوته فيستعين بهم في بعض شأنه، كما يستعينون به في بعض شأنهم، وهذا الذي يعبرون عنه بقولهم: (الإنسان مدني بالطبع) يريدون بذلك أنه لم يوهب من القوى ما يكفي للوصول إلى جميع حاجاته، بل قدر له أن تكون منزلة أفراده من الجماعة منزلة العضو من البدن، لا يقوم البدن إلا بعمل الأعضاء، كما لا تؤدي الأعضاء وظائفها إلا بسلامة البدن»[24].

وللماوردي (ت 450هـ) ملمح لطيف في التأكيد على ضرورة التعاون وأهميته يقول: «اعلم أن الدنيا لم تك قط لجميع أهلها مسعدة، ولا عن كافة ذويها معرضة، لأن إعراضها عن جميعهم عطب، وإسعادها لكافتهم فساد، لائتلافهم بالاختلاف والتباين، واتفاقهم بالمساعدة والتعاون، فإذا تساوى حين إذن جميعهم، لم يجد أحدهم إلى الاستعانة بغيره سبيلا، وبهم من الحاجة والعجز ما وصفنا، فيذهبوا ضيعة، ويهلكوا عجزا. وأما إذا تباينوا واختلفوا صاروا مؤتلفين بالمعونة، متواصلين بالحاجة، لأن ذا الحاجة وَصُول، والمحتاج إليه موصول»[25].

وقد سبق النبي ﷺ إلى تأكيد هذه الحقيقة، حين قال: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)[26]. حيث بين النبي ﷺ الأسس التي يقوم عليها بناء المجتمع المسلم، وهي التراحم والتواد والتعاطف؛ هذه الخصال التي من شأنها أن تجعل المجتمع متماسكا, متحابا، ومتراصا. ضرب مثلا لهذا التماسك بالجسد الواحد الذي يتكون من أعضاء وجوارح يكمّل بعضها بعضا, ويؤدي كل واحد منها المسؤولية المنوطة به. وفي حديث آخر شبه

ISSN: 2708-4663 DNNLD :2020-3/1128

النبي ﷺ تماسك المجتمع المسلم، وتعاون أعضائه بالبنيان المرصوص، فقال: (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا)[27]، وشبك ﷺ أصابعه زيادة في تجلية المعنى.

وقد ضرب المجتمع الإسلامي الأول بصحبته ﷺ أروع نموذج, وأبلغ مثال على تماسك المجتمع وتعاون أعضائه وتكافلهم وتراحمهم ووقوفهم يدا واحدة في وجه الشدائد والأزمات. وسجل التاريخ حدث المؤاخاة كحدث فريد في تاريخ البشرية زكت هذا الطرح، وأبرزت هذا التماسك والتعاون؛ دشَّن بها النبي ﷺ مرحلة القوة والإشعاع في تاريخ الدعوة الإسلامية بعد الهجرة والاستقرار بالمدينة، إضافة إلى بناء المسجد النبوي كرمز للتلاحم والاجتماع، ومنتدى للتآلف والتعارف.

فكانت هذه الخطوة خطوة معضدة ساهمت في إشاعة روح المحبة، وتوطيد أواصر التآلف والتعاضد والتعاطف، حيث آخى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار؛ بما يَحمله عقد المؤاخاة من شروط وواجبات، وما يوحي به من معاني ودلالات. فقد روى البخاري أن المهاجرين لما قدموا إلى المدينة آخى الرسول ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع الأنصاري, فقال سعد لعبد الرحمان: (إِنِّي أَكْثَرُ الْأَنْصَارِ مَالًا فَأَقْسِمُ مَالِي نِصْفَيْنِ وَلِي امْرَأَتَانِ فَانْظُرْ أَعْجَبَهُمَا إِلَيْكَ فَسَمِّهَا لِي أُطَلِّقْهَا فَإِذَا انْقَضَتْ عِدَّتُهَا فَتَزَوَّجْهَا ، قَالَ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ, أَيْنَ سُوقُكُمْ ؟ فَدَلُّوهُ عَلَى سُوقِ بَنِي قَيْنُقَاعَ فَمَا انْقَلَبَ إِلَّا وَمَعَهُ فَضْلٌ مِنْ أَقِطٍ وَسَمْنٍ ثُمَّ تَابَعَ الْغُدُوَّ, ثُمَّ جَاءَ يَوْمًا وَبِهِ أَثَرُ صُفْرَةٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَهْيَمْ "، قَالَ : تَزَوَّجْتُ ، قَالَ: كَمْ سُقْتَ إِلَيْهَا، قَالَ : نَوَاةً مِنْ ذَهَبٍ)[28].

فكانت حادثة المؤاخاة حكمة نبوية فذة, وسياسة صائبة, وقرارا حكيما قضى على أسباب الفرقة والشقاق، وساهم في حل الكثير من المشكلات التي كان سيواجهها المؤمنون في إطار سعيهم لبناء كيان المجتمع الإسلامي القوي والقادر على الثبات أمام التحديات الداخلية والخارجية, وكيد اليهود المتربصين، ورجال القبائل المحيطة المتآمرين على الدولة الإسلامية الفتية.

كذلك عزز الإسلام أواصر التعاون والتعاضد والتكافل, وقيم الإحسان بين المؤمنين من خلال ما افترضه على المنتسبين لشريعته من شعائر وفرائض. فقد جعل للفقراء حقوقا على الأغنياء, لا تبرأ ذمتهم أمام الله إلا بأدائها؛ بما يضمن لهم العيش الكريم, والحياة الطيبة، ومن هذه الحقوق حق الزكاة الذي جعله الله فرضا لازما، وواجبا حتميا، وركنا أساسيا من أركان الإسلام، مما حدا بأبي بكر الصديق إلى محاربة من رفض أداءها. نستأنس في هذا المقام بقولة للأديب المفكر مصطفى صادق الرافعي (ت 1356هـ) حول

ISSN: 2708-4663 DNNLD :2020-3/1128

أهمية الزكاة كمحفز على التكافل والإحسان, يقول فيها: «ليس في الوسائل الاجتماعية كلها ما يعدل نظام الزكاة في الإسلام، وفي هذا الدين الإسلامي العظيم أصول إنسانية عامة لابد أن تتنبه لها الأمم فتكون سببا في إقبالها عليه, وظهوره على الدين كله. ومن هذه الأصول الزكاة, فلو أنه أُخذ ربع العشر (اثنان ونصف في المائة) من ثروة العالم بأجمعه كل سنة, وجعل في مصالح الفقراء لأصلح الفقر والغنى معا, ولكن الاشتراكية تحاول محق الربا بمحق رأس المال, وتعمى عن نظام الزكاة وهذا من شرِّها»[29].

على أن الناظر في القرآن الكريم تتجلى له المكانة العالية لهذا المقصد، حيث نجد الكثير من الآيات التي تقرر أهميته وضرورته، وتجعل منه قيمة أصيلة من قيم المجتمع المسلم, وسلوكا فاضلا في وجدان المؤمن الحق, وطاقة روحية تنبعث من نفسه, فتدفع عنها نوازع الأنانية والفردانية، والأثرة البغيضة, وتضيء بإشعاعها الرحب جوانب النفس الإنسانية المجبولة على الطمع والشح والأنانية والأثرة، يقول الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (المائدة: 2) يقول الإمام القرطبي (ت 671هـ): «هو أمر لجميع الخلق بالتعاون على البر والتقوى; أي: ليعن بعضكم بعضا، وتحاثوا على ما أمر الله تعالى واعملوا به، وانتهوا عما نهى الله عنه وامتنعوا منه ; وهذا موافق لما روي عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال: الدال على الخير كفاعله، وقد قيل: الدال على الشر كصانعه. ثم قيل: البر والتقوى لفظان بمعنى واحد، وكرر باختلاف اللفظ تأكيدا ومبالغة، إذ كل بر تقوى وكل تقوى بر... وقال ابن خويز منداد في أحكامه: والتعاون على البر والتقوى يكون بوجوه; فواجب على العالم أن يعين الناس بعلمه فيعلمهم، ويعينهم الغني بماله، والشجاع بشجاعته في سبيل الله، وأن يكون المسلمون متظاهرين كاليد الواحدة المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم»[30].

فيُمْسي التكافل والإحسان –تبعا لهذا التصور– عنصرا من عناصر العقيدة الصحيحة, ووسيلة من وسائل التقرب إلى الله, وطلب المنزلة عنده, والفوز بالنعيم المقيم، والارتقاء في الدرجات العلى, وسبيلا لاستكمال مراتب الإيمان وتحصيل التقوى. قال النبي ﷺ في ما رواه أبو هريرة ﷺ: (من نفَّس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة, ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه)[31], وقال الله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ (آل عمران:92).

ISSN: 2708-4663 DNNLD :2020-3/1128

وقد ساهم في تأصيل هذا السلوك الرفيع, وترسيخ هذا المبدأ الراقي في نفوس أبناء المجتمع الإسلامي مجموع الآيات القرآنية, والتعاليم الربانية, والتوجيهات النبوية التي تحض جميعها على بذل الخير, وبسط يد الرحمة والمواساة لكافة المحرومين والبائسين والفقراء. ففي حديث يعد دستور التكافل والتراحم, وعنوانا على رسالة الإسلام الاجتماعية, يقول النبي ﷺ: (ليس بالمؤمن الذي يبيت وجاره جائع إلى جنبه)[32]. فالرسول الكريم ينفي –هنا– الإيمان، ويلغي الانتماء للأمة على من يستأثر بحلاوة العيش وطيب الطعام, وجاره يشكو من مس الجوع وقساوة الحرمان. وهو بذلك يقعد لأسس الجوار الإسلامي وآدابه وواجباته. وفي حديث قدسي جاء فيه: (وجبت محبتي للمتحابين في, والمتجالسين في, والمتزاورين في)[33]، حيث يبين الحق سبحانه أن استحقاق محبته رهين بتمثل الفرد المسلم لأخلاق المحبة والبذل والتسامح والتزاور, وأن مقياس القرب منه سبحانه, والمنزلة عنده تقاس بما حصله المؤمن من مجموع طيب من هذه الخصال الحميدة. وقد أثر عن عمار قوله: (ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان: الإنصاف من نفسك، وبذل السلام للعالم، والإنفاق من الإقتار)[34], فبَيَّن أن كمال الإيمان متوقف على بذل المال والنفس والجهد والوقت في سبيل الله عز وجل، وقد قال ﷺ من حديث أنس بن مالك: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)[35]، وجاء عنه أيضا: (من كان معه فضل ظهر فلْيَعُدْ به على من لا ظهر له, ومن كان معه فضل زاد, فليعد به على من لا زاد له)[36], حيث حث ﷺ على البذل والعطاء والإكثار من الصدقات.

الأصل الثالث: البر سلوك إيماني واجتماعي وممارسة تطوعية

لعل من أقرب من المصطلحات القرآنية، وأكثرها صلة بمصطلح التطوع، وانسجاما مع معانيه الجزئية، ومقاصده الكلية؛ مصطلح البر الذي تكرر وروده في القرآن الكريم في سياقات مختلفة ومواطن متعددة: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى (المائدة: 2)، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ (الطور: 28)، ﴿وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (المجادلة: 9)، ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: 44)، ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة: 177)،

ISSN: 2708-4663 DNNLD :2020-3/1128

﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (البقرة: 189)، ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (آل عمران: 92).

وقد حوى مصطلح البر من المعاني العظيمة ما يجعله مصطلحا جامعا جمع بين كمال الطاعة والامتثال، وجمال الإحسان، يقول الفراهي (ت 1349هـ) في مفرداته: «البر: أصله إيفاء الحق، فتفرع منه ما يكون إيفاء للحقوق الأصلية من الطاعة للرب والأبوين والمواساة بالناس. ومن هذه الجهة صار بمعنى الإحسان، واشتمل الخيرات، وصار وصفا للرب تعالى إنه هو البر الرحيم. ثم هو إيفاء للحقوق الناشئة بالاختيار من العهود والأيمان.. فظهر مما مر أن للبر وجهين: عاما يشتمل جميع الخيرات، وخاصا وهو الإيفاء بالحقوق والواجبات»[37].

وللبر مقتضيات ومتطلبات لا بد من الوفاء بها لكل متخلق به، متمثل له حتى يُحصل أسباب التقوى، وينتظم في سلك أهل الصدق: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ تُستنبط من الآيات السابقات:

- إيمان يقيني وتصديق غيبي بأصول الإيمان المعلومة تحققا وتعلقا.

- بذل المال وإنفاقه في الوجوه المفروضة كالزكاة ونفقة الوالدين والزوجة والأولاد، وفي الأعمال التطوعية كالصدقة بجميع أنواعها وأشكالها من هبة ووقف وغيرهما، وهذا الوجه اصطلح عليه الماوردي ببر الصلة، ثم قال معرفا: «هي التبرع ببذل المال في الجهات المحمودة لغير عوض مطلوب، وهذا يبعث عليه سماحة النفس وسخاؤها، ويمنع منه شحها وإباؤها»[38].

- بذل الوقت والجهد والعلم والخدمة لإعانة المحتاجين، وإرشاد التائهين، وإسعاف ذوي الحاجات الخاصة.

وقد وسع القرآن والسنة مفهوم الصدقة لتشمل مجالات عدة ومَبَرَّات كثيرة، يقول ابن رجب الحنبلي (ت 795هـ): «الصدقة تطلق على جميع أنواع المعروف والإحسان حتى أن فضل الله الواصل منه إلى عباده صدقة منه عليهم»[39]. وفَصَّل في ذلك فقال: «الصدقة بغير المال نوعان: أحدهما ما فيه تعدية الإحسان إلى الخلق فتكون صدقة عليهم، وربما كان أفضل من الصدقة بالمال، وهذا كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنه دعاء إلى طاعة الله وكف عن معاصيه وذلك خير من النفع بالمال، وكذلك تعليم العلم النافع

ISSN: 2708-4663 DNNLD :2020-3/1128

وإقراء القرآن وإزالة الأذى عن الطريق والسعي في جلب النفع للناس ودفع الأذى عنهم وكذلك الدعاء للمؤمنين والاستغفار لهم»[40].

-التحقق بمقام الإحسان، والتدرج في مدارجه تعلقا وتخلقا؛ فلا يكاد التالي لكتاب ربه المتدبر له إلا ويقف على تردد ذكر مصطلح الإحسان بصيغ لغوية متعددة في سياقات مختلفة تحث عليه، وتعلي من شأنه، وتمدح أهله، وتبشرهم بالحظوة والمنزلة عند الله، والقرب منه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل: 90)، ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ (الحج: 37)، ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة: 58)، ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة: 195)، ﴿مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة: 236)، ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (الأنعام: 84)، ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (الأعراف: 56)، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (التوبة: 120)، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت: 69)، وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (القصص: 77)، وغيرها من الآيات...

ومن معاني الإحسان التي آخرها يوصل إلى أولها، وأولها يُبنى على ما قبلها: -أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فهو يراك -الإحسان إلى الناس كافة مع تخصيص فئات وردت التوصية بهم، والتنبيه على فضلهم كالوالدين والأقربين واليتامى وغيرهم -إتقان العمل وتجويده. فلا سبيل إلى تسنم مقام الإحسان دون أن يبذل الإنسان من وقته وماله ونفسه، وأن يجتهد في الطاعات والقربات والنوافل وقد جاء في الحديث القدسي: (وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإن أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به...) والنوافل هي الأعمال التطوعية، قال صاحب مختار الصحاح: «النافلة عطية التطوع»[41]، وهذا المعنى أشرنا إليه سابقا ضمن معاني مصطلح التطوع.

ولا سبيل إلى هذا المقام دون خدمة الناس ونجدتهم، ومساعدة ضعيفهم، وحمل كَلِّهم، لأن خدمة الخلق باب الحق عز وجل، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (19) فذَكَر أن من أسباب استحقاقهم رضى ربهم إحسانهم في دنياهم، وما تحقق لهم ذلك إلا بأمرين: عبادة وعطاء.

ISSN: 2708-4663 DNNLD :2020-3/1128

الأصل الرابع: الاعتبار الأخروي والباعث الإيماني

مما يميز العمل التطوعي في الإسلام، ويمنحه فرادة عن غيره من الأعمال التطوعية التي تولد في سياقات ثقافية مختلفة؛ أنه يتأسس على الباعث الإيماني، والحافز الأخروي، الذي يجعل المسلم المتطوع في ميادين الخير مستمرَّ العطاء، دائمَ البذل، متواصلَ الجهد في خدمة الناس دون تأفف أو مَنٍّ أو كَلال؛ دافعه في ذلك طلب المنزلة عند ربه، وإرادة وجهه، والطمع في جنته، يقول الله تعالى في شأن هؤلاء الصفوة: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ (الإنسان:10) قال ابن كثير (ت 774هـ): «"إِنَّمَا نُطْعِمكُمْ لِوَجْهِ اللَّه" أَيْ رَجَاء ثَوَاب اللَّه وَرِضَاهُ ... لَا نَطْلُب مِنْكُمْ مُجَازَاة تُكَافِئُونَنَا بِهَا، وَلَا أَنْ تَشْكُرُونَا عِنْد النَّاس. قَالَ مُجَاهِد وَسَعِيد بْن جُبَيْر: أَمَا وَاَللَّه مَا قَالُوهُ بِأَلْسِنَتِهِمْ وَلَكِنْ عَلِمَ اللَّه بِهِ مِنْ قُلُوبهمْ فَأَثْنَى عَلَيْهِمْ بِهِ لِيَرْغَب فِي ذَلِكَ رَاغِب».[42]

وهذا من خصائص العمل التطوعي في الإسلام التي لن تجدها عند غيره ممن تتعدد الدوافع الباعثة عليه، ويغيب فيه استحضار هذا العامل الأخروي، فتلتصق أهداف أصحابه بالدنيا ومصالحها الآنية، واعتباراتها المحدودة، يقول الله تعالى مذكرا ومحفزا ومنبها: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ (المزمل: 20)، ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ (البقرة: 245)، ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ (الحديد: 11)، ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: 274).

الأصل الخامس: آيات المسارعة إلى الخيرات

تطالعنا في الكثير من آيات الكتاب العزيز دعوات للمسابقة في الخيرات، والمسارعة إلى البذل والعطاء والسخاء، يقول الله تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ (البقرة: 148)، ﴿وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (آل عمران: 114)، ﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (التوبة: 88)، ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ (الأنبياء: 73)، ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى

ISSN: 2708-4663 DNNLD :2020-3/1128

الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: 104)، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الحج: 77)... والخير كما عرفه الكفوي (ت 1094هـ) في كلياته: وجدان كل شيء كمالاته اللائقة... ويعم الدعاء إلى كل ما فيه صلاح ديني أو دنيوي[43].

وتعد هذه الآيات الداعية لسلوك طريق الخيرات إطارا حاضنا لقيم التطوع، وحافزا للنهوض بها، وتعميمها على كل المجالات التي من شأنها أن تحقق النفع الديني والدنيوي، وتنهض بأحوال الأمة، وتسهم في التنمية الاقتصادية، والرعاية الاجتماعية.

خاتمة:

إن من شأن هذه الأصول القرآنية التي شادت صرحا متينا، وبنيانا راسخا لقيم التطوع أن تسهم في علاج مشكلاتنا الاجتماعية، ومداواة أمراض الأنانية والأثرة والفردانية التي أمست من لوازم الحياة المعاصرة، مما يستوجب الرجوع إلى معين القرآن الصافي، والاقتباس من أنواره، والبحث في أسراره، واستبصار فوائده ومقاصده. وقد حاولت هذه الورقة البحثية مقاربة مصطلح التطوع مقاربة قرآنية، استصحبت أدوات النظر اللغوي، والجهد التفسيري مما مكن من استنباط أصول الخدمة الاجتماعية والأعمال التطوعية. وقد وقفنا من خلال هذه الدراسة على جملة من الخلاصات والنتائج والتوصيات، نجملها في الآتي:

- وجود علاقة لازمة بين تطور الأمة الحضاري والدراسات القرآنية باعتبار كتاب الله كتاب هداية وإرشاد، وبيان نذارة وبشارة.
- أهمية دراسة المصطلحات القرآنية لكل من رام الكشف عن المعاني القرآنية، واستكناه جواهرها المعرفية، وتمثل مراد الله في كتابه العزيز.
- غنى وثراء مصطلح التطوع من حيث مأخذه اللغوي وجذره الأصلي، من هذه المعاني: الانقياد والإذعان والاتباع، وبذل النفس والمال، والقدرة على الوفاء بمقتضى الفعل، وتحبيبه، والتشجيع عليه على سبيلي التسهيل والإعانة، كما يفيد معنى الاتساع والبركة في الانتفاع، ويدل على النضج والاكتمال، ويشير إلى ما يفعله المرء من تلقاء نفسه من غير إلزام محبة وسخاء وعطاء.

ISSN: 2708-4663 DNNLD :2020-3/1128

- تعد الولاية الإيمانية الجامعة أصلا مهما من أصول التطوع التي تحرك في الفرد الدوافع الذاتية، والحوافز التشجيعية لنشر الخير، وبذل المعروف، وإسعاف المحتاج.
- ضرورة التعاون وأهميته باعتباره مقصدا إلهيا، وحاجة إنسانية، وقيمة أصيلة من قيم المجتمع المسلم التي من شأنها تخلية النفس من نوازع الأنانية والفردانية، والأثرة البغيضة.
- حوى مصطلح البر من المعاني العظيمة ما يجعله مصطلحا جامعا جمع بين كمال الطاعة والامتثال، وجمال الإحسان، وهو من أقرب المصطلحات القرآنية وأوثقها صلة بمصطلح التطوع.
- يتأسس العمل التطوعي في الإسلام على الباعث الإيماني، والحافز الأخروي مما يميزه عن غيره، والذي يجعل المسلم المتطوع في ميادين الخير مستمرَّ العطاء، دائمَ البذل، متواصلَ الجهد في خدمة الناس دون تأفف أو مَنٍّ أو كَلال.

لائحة المصادر والمراجع:

- إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي (ت 505هـ). مكتبة الصفا: القاهرة، ط1، 1423هـ/2003م.
- أدب الدنيا والدنيا لأبي الحسن علي الماوردي (ت 450هـ). دار الكتب العلمية: بيروت، ط1، 1407هـ/1987م.
- آراء أهل المدينة الفاضلة لأبي نصر الفارابي (ت 339هـ). تحقيق ألبير نصري نادر، دار المشرق: بيروت-لبنان، ط2، 1968.
- اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية (ت 728هـ). المطبعة الشرفية، ط1، 1325هـ/1907م.
- التحرير والتنوير. التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور (ت 1393هـ). الدار التونسية للنشر: تونس، 1984م.
- تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسماعيل ابن كثير (ت 774هـ). تحقيق سامي بن محمد السلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع: الرياض، ط2، 1418هـ/1997م.
- تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (ت 1354هـ). دار المنار: القاهرة، ط2، 1366هـ/1947م.
- تهذيب اللغة لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري (ت 370هـ). تحقيق عبد الحليم النجار، الدار المصرية للتأليف والترجمة: مصر.
- جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي (ت 795هـ). دار الفكر: بيروت-لبنان، 1412هـ/1992م.

ISSN: 2708-4663 DNNLD :2020-3/1128

- الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد القرطبي (ت 671ه). تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة: بيروت، ط1، 1427ه/2006م.
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت 393ه). تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين: بيروت، 1407ه-1987م.
- صحيح ابن حيان (ت 354ه). تحقيق شعيب الأرناؤوط. مؤسسة الرسالة: بيروت، ط2، 1414ه/1993م.
- صحيح البخاري (ت 256ه). تحقيق مصطفى البغا. دار ابن كثير-اليمامة: بيروت، ط3، 1407ه/1987م.
- صحيح مسلم (ت 261ه). تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء التراث العربي: بيروت.
- مختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر الرازي (ت 666ه). دار اليمامة: دمشق-بيروت، ط2، 1407ه/1987.
- الفروق اللغوية لأبي هلال للعسكري (كان حيا سنة 395ه). تحقيق محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة: القاهرة، 1418ه/1997.
- القاموس المحيط لمحمد بن يعقوب الفيروز آبادي (ت 817ه). مؤسسة الرسالة: بيروت، ط8، 1426ه/2005م.
- كتاب العين لأبي عبد الرحمان الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 170ه). تحقيق مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال: بيروت.
- كتاب المساكين لمصطفى صادق الرافعي (ت 1356ه). دار الكتاب العربي: بيروت-لبنان، ط10، 1402ه-1982م.
- الكليات لأبي البقاء الكفوي (ت 1094ه). تحقيق عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة: بيروت، ط2، 1419ه/1989م.
- لسان العرب لسان العرب لمحمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري (ت711ه). دار صادر: بيروت-لبنان، ط1.
- المستدرك على الصحيحين لأبي عبد الله الحاكم النيسابوري (ت 405ه). تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية: بيروت، ط1، 1411ه/1990.
- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (ت502ه). دار المعرفة: بيروت، ط1، 1418ه/1998.
- مفردات القرآن لعبد الحميد الفراهي (ت 1349ه). تحقيق محمد أجمل أيوب الإصلاحي، دار الغرب الإسلامي: بيروت، ط1، 2002م.
- مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس (ت 395ه). تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر: بيروت.

ISSN: 2708-4663 DNNLD :2020-3/1128

- الموافقات لأبي إسحاق الشاطبي (ت 790هـ). شرح وتخريج عبد الله دراز، دار الكتب العلمية: بيروت.

---

[1] الموافقات لأبي إسحاق الشاطبي المجلد2، ج3: 257. شرح وتخريج عبد الله دراز، دار الكتب العلمية: بيروت.

[2] اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية: 78. المطبعة الشرفية، ط1، 1325هـ/1907م.

[3] مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس 431/3. تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر: بيروت.

[4] المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني: 312. دار المعرفة: بيروت، ط1، 1418هـ/1998.

[5] راجع الفروق اللغوية لأبي هلال للعسكري: 221. تحقيق محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة: القاهرة، 1418هـ/1997.

[6] الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي: 1255. تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين: بيروت، 1407هـ-1987م.

[7] مقاييس اللغة 431/3-432. وذكر صاحب مختار الصحاح: «المطوعة الذين يتطوعون بالجهاد ومنه قوله تعالى الذين يلمزون المطوعين وأصله المتطوعين فأدغم و المطاوعة الموافقة والنحويون ربما سموا الفعل اللازم مطاوعا» مختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر الرازي: 260. دار اليمامة: دمشق-بيروت، ط2، 1407هـ/1987.

[8] المفردات في غريب القرآن: 312.

[9] الصحاح : 1255.

[10] لسان العرب لسان العرب لمحمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري 242/8. دار صادر: بيروت-لبنان، ط1.

[11] لسان العرب 241/8.

[12] القاموس المحيط لمحمد بن يعقوب الفيروز آبادي: 745. مؤسسة الرسالة: بيروت، ط8، 1426هـ/2005م.

[13] تهذيب اللغة لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري 105/3. تحقيق عبد الحليم النجار، الدار المصرية للتأليف والترجمة: مصر.

[14] تهذيب اللغة 103/3.

[15] كتاب العين لأبي عبد الرحمان الخليل بن أحمد الفراهيدي 210/2. تحقيق مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال: بيروت.

[16] لسان العرب 241/8.

[17] القاموس المحيط: 745.

[18] يقول ابن فارس في هذا المعنى عند حديثه عن النفل: «النون والفاء واللام أصلٌ صحيح يدلُّ على عَطاء وإعطاء. منه النَّافلة: عَطِيَّة الطَّوْعِ من حيثُ لا تَجِب» مقاييس اللغة 455/5.

ISSN: 2708-4663 DNNLD :2020-3/1128

[19] لسان العرب 243/8.

[20] مقاييس اللغة 431/3.

[21] التحرير والتنوير. التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور 243/27-244. الدار التونسية للنشر: تونس، 1984م.

[22] إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي 218/2. مكتبة الصفا: القاهرة، ط1، 1423هـ/2003م.

[23] آراء أهل المدينة الفاضلة لأبي نصر الفارابي: 117. تحقيق ألبير نصري نادر، دار المشرق: بيروت-لبنان، ط2، 1968.

[24] نقله تلميذه محمد رشيد رضا، انظر: تفسير المنار لمحمد رشيد رضا 282/2. دار المنار: القاهرة، ط2، 1366هـ/1947.

[25] أدب الدنيا والدنيا لأبي الحسن علي الماوردي: 110. دار الكتب العلمية: بيروت، ط1، 1407هـ/1987م.

[26] انظر: -صحيح البخاري 2238/5 . تحقيق مصطفى البغا. دار ابن كثير-اليمامة: بيروت، ط3، 1407هـ/1987م.-صحيح مسلم 1999/4. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء التراث العربي: بيروت.

[27] انظر: -صحيح البخاري 182/1 -صحيح مسلم 1999/4.

[28] صحيح البخاري 1378/3.

[29] كتاب المساكين لمصطفى صادق الرافعي: 80. دار الكتاب العربي: بيروت-لبنان، ط10، 1402هـ-1982م.

[30] الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد القرطبي 268/7-269. تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة: بيروت، ط1، 1427هـ/2006م.

[31] صحيح مسلم 2074/4.

[32] المستدرك على الصحيحين 15/2. تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية: بيروت، ط1، 1411هـ/1990.

[33] صحيح ابن حيان 335/2. تحقيق شعيب الأرناؤوط. مؤسسة الرسالة: بيروت، ط2، 1414هـ/1993.

[34] صحيح البخاري 19/1.

[35] انظر: -صحيح البخاري 14/1 -صحيح مسلم 67/1.

[36] صحيح البخاري 1354/3.

[37] مفردات القرآن لعبد الحميد الفراهي: 266-267. تحقيق محمد أجمل أيوب الإصلاحي، دار الغرب الإسلامي: بيروت، ط1، 2002م.

[38] أدب الدنيا والدين: 156.

ISSN: 2708-4663 DNNLD :2020-3/1128

[39] جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي: 233. دار الفكر: بيروت-لبنان، 1412هـ/1992م.

[40] جامع العلوم والحكم: 233.

[41] مختار الصحاح 281/1.

[42] تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسماعيل ابن كثير 289/8. تحقيق سامي بن محمد السلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع: الرياض، ط2، 1418هـ/1997م.

[43] الكليات لأبي البقاء الكفوي: 433. تحقيق عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة: بيروت، ط2، 1419هـ/1989م.